ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:07، العدد:01 (2023)، ص150-164

الهلالية في مجالات بني حماد بين الخضوع والتمرد (405-547هـ/1014-1152م)

The Hilālian in the areas of Banu Hammad Between Submission and Rebellion (405-547H/1014-1152ad)

نور الدين مسعودي
جامعة المدية (الجزائر)
messaoudinour68@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/02/12
تاريخ القبول:
2023/05/28

الكلمات المفتاحية:
- ✓ القبائل الهلالية
- ✓ بلاد المغرب
- ✓ بني حماد
- ✓ الزيريين

الملخص:

يتضمن هذا البحث دراسة حول انخراط القبائل الهلالية ضمن المشاريع السياسية للدولة الحمادية، وذلك بتجنيدهم في صفوف الجيش الحمادي، للاستفادة من قدراتهم القتالية كي تكون سندا لهم لتحقيق مشاريعهم التوسعية لبسط نفوذهم على بلاد المغرب، تطرقنا في البداية لأصول القبائل الهلالية ولنشاطها في المشرق قبل الهجرة إلى بلاد المغرب، كما تحدثنا عن العلاقات بين إمارتي بني زيري وبني حماد خلال تلك الفترة، ومنازعاتهما التوسعية، كما تطرقنا لاجتياح الهلاليين للمغرب الأوسط بعد انتصارهم في معركة سبيبة على الحماديين، وكيف عمل أمراء بني حماد على مغازلة الهلاليين لضمهم إلى صفوفهم.

Article info

Received:
12/02/2023
Accepted:
28/05/2023

Key words:
- ✓ The Hilālian Tribes
- ✓ The Maghreb Countries
- ✓ Banu Hammad
- ✓ The Zīrids

Abstract:

This research includes a study on the involvement of the Banū Hilāl tribes in the political projects of the Hammadid state. By enlisting them in the ranks of the Hammadi army, to benefit from their combat capabilities in order to be a support for them to achieve their expansionist projects to extend their influence over the lands of the Maghreb. We initially discussed the origins of the Hilāl tribes and their activity in the East before migrating to the Maghreb. We also talked about the relationship between the Emirates of Banū Zīrī and Banu Hamad during that period, and their expansionist disputes. Then, we discussed the invasion of the the Banū Hilāl in the central Maghreb after their victory in the battle of Sbeiba against the Hammadi, and how the princes of Banu Hammad worked to court the Hilali to join their ranks.

مقدمة

تعتبر الهجرة الهلالية التي شهدتها بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حدثا بالغ الأهمية لِمَا أحدثته من تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية في المنطقة، فبدخول قبائل بني هلال إلى إفريقية انهارت سلطة الزيريين، وانقسمت إمارتهم إلى ما يشبه دويلات الطوائف ببلاد الأندلس، وتطلّع الحماديون للتوسع على حساب بني عمومتهم الزيريين، في حين ظهرت دولة المرابطين، وكثّفت قبيلة زناتة حملاتها على الجميع، فاستغل الهلاليون هذا الوضع لعرض خدماتهم العسكرية، **فهل تمكن الحماديون من التحالف مع الهلاليين وتوظيفهم في صفوف جيوشهم، والاستفادة من قدراتهم القتالية لتحقيق أهدافهم السياسية؟**

1. أصول القبائل الهلالية ونشاطها السياسي بالمشرق

الهلالية وبني هلال؛ تسمية أُطلقت على القبائل العربية التي اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وشملت لفظة الهلالية باقي القبائل العربية المتحالفة مع الهلاليين من باب إطلاق اسم الجزء على الكل (ابن خلدون، 2000، ص 23) (علي حسن، 1980، ص307)، ولأنّ الرياسة حينها كانت لقبيلة بني هلال، صارت القبائل المتحالفة معها مندرجة في جملتها، ويشير الباحث عبد الحميد يونس إلى وجود عامل مهم ساعد على استئثارهم بالشهرة، يتصل بالاسم "**هلال**" وسهولة دورانه على الألسنة، ونحن نرجّح أنّ دخول قبيلة بني هلال إلى المجالات المغربية قبل غيرها ساهم بشكل مباشر في تعميم المصطلح على باقي القبائل، رغم أنّ بني سُليم يفوقون الهلاليين عددًا وصيتًا (يونس، د.ت، ص 52). واختلف المؤرخون في أسماء القبائل التي شدّت الرحال باتجاه المغرب الإسلامي، فبعضها أجمعت المصادر على ذكرها، في حين انفردت مصادر بذكر قبائل لم تذكرها المصادر الأخرى، ويتبين لنا من خلال تتبّع تاريخ القبائل التي اتجهت غربًا، بأنها تمثلت في بني هلال وبني سُليم وما التحم بهما من بطون القبائل الأخرى (ابن خلدون، 2000، ص 23). وتنحدر قبيلتا بني سُليم وبني هلال من قيس عيلان، وهي بذلك تنتمي إلى الفرع العدناني الشمالي (ما يُسمَّى بعرب الشمال) (القلقشندي، 1980، ص 294). وكان لتلك القبائل حضورا بارزا في المشرق، فكانت سُليم من أشهر قبائل العرب في الجاهلية، وكانت لهم رفقة بني هلال أيامهم وصِلاتهم، وعند ظهور الإسلام ساهموا في الفتوحات الإسلامية، كما كان لهم حضورا في الأحداث التي عرفتها الدولة الإسلامية، ولما ساءت علاقتهم بالعباسيين انضموا للقرامطة في البحرين، وانخرطوا في أعمال السلب والنهب واعتراض قوافل الحج، والواضح أنّ ظاهرة التمرّد وقطع السابلة والخروج عن الدولة لم تقتصر على بني هلال وبني سُليم وحدهم (الخضري بك، 2003، ص 220) (أبو عزة، 1986، ص 57).

2. علاقة بني حماد بجيرانهم في ظل تحرش الهلاليين بأراضي المغرب الأوسط

غلب الطابع العدائي على العلاقات السياسية الزيرية الحمادية، منذ انفصال حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1029م) عن بني عمه الزيريين، حتى وإن تخللت ذلك فترات عرفت نوعا من التصالح

بينهما، تبعا للظروف التي كانت تمر بها كلتا الدولتين، والتي فرضت عليهما السعي نحو إيجاد تقارب بينهما، إلا أنّ حسن العلاقات اقتصر على المصاهرات وتبادل السفارات، دون أن يرقى إلى مستوى التعاون أو التحالف لمواجهة مختلف التحديات، فبعد وفاة حماد استلم الحكم ابنه القائد (419-446هـ/1028-1054م)، الذي تصفه المصادر بأنه كان" **سديد الرأي، عظيم القدر**"، ويصفه ابن خلدون بأنه كان جبارا، وعرف عهده استقرارا بفضل جهود والده من قبل في توطيد أركان دولته، تلك الجهود التي كان للحاكم الحمادي الجديد القائد، مساهمة كبيرة في تجسيدها، حيث يعتبر هو مهندس الصلح الذي تم بين والده حماد والمعز بن باديس، وفي أول مشكلة واجهته مع العدو التقليدي زناتة، أظهر القائد حنكته السياسية، فعندما زحف إليه أمير فاس، حمامة بن زيري بن عطية الزناتي سنة 430هـ/1039م، استعمل القائد الحيلة والدهاء وقام باستمالة بعض الزناتيين، وسرّب إليهم الأموال، فما كان من حمامة إلا مصالحته والدخول في طاعته (ابن خلدون، 2000، ص 229) (ابن الخطيب، 2003، ص 329).

أما علاقته مع الزيريين، فإنّ المصادر تذكر بأن القائد بقي على اتصال مع المعز بعد صلح 408هـ/1018م، حيث يقول النويري: "**وبقي القائد يتردد على المعز**"، ولكن ودائما حسب النويري فإن القائد كان يتحين أي فرصة للتخلص من تبعات ذلك الصلح "**يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه**" (النويري، 2004، ص 114، 122)، ففي الوقت الذي كان فيه المعز يتأهب لإعلان القطيعة مع الفاطميين، خالفه القائد وأعلن عصيانه، مما جعل المعز يتحرك نحو القلعة في سنة 432هـ/1041م، التي ظل محاصرا لها مدة سنتين، ثم انتهى هذا الحصار بالتصالح بين الطرفين (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 248) (ابن خلدون، 2000، ص 229).

وعندما استنجد المعز بالقائد لإمداده عسكريا أثناء الزحف الهلالي، رأى الأمير الحمادي أنه من واجب التضامن العائلي أو الشعور بالخطر المشترك، أن يستجيب للنداء الزيري، فأوفد إليه ألف فارس، رغم أنهم تخاذلوا في معركة حيدران، وبعد أن رأى ما حلّ بأبناء عمومته، أيقن القائد أنّ الدور سيكون عليه إن لم يتدارك الموقف بسرعة، فراجع طاعة الفاطميين، ووصله من المستنصر لقب شرف الدولة، الذي كان للمعز سابقا (ابن خلدون، 2000، ص 229) (مارسيه، دت، ص 227) ، وفي رسالته إلى صاحب اليمن يذكر المستنصر الفاطمي أنّ وفدا كان من ضمنه ابن حماد أخ صاحب القلعة، انتقل إلى قابس لمقابلة مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، لتقديم فروض الولاء والطاعة، وطلب العفو من أمير المؤمنين: "**وخرج إليه ابن بُلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلا في مثله عن صنهاجة وافدين**" (المستنصر بالله، 1954، ص 44).

وكان الحماديون أكبر مستفيد من الاجتياح الهلالي لإفريقية، فالمصادر تتحدث عن انتقال الكثير من أهل إفريقية بعد خرابها إلى بلاد بني حماد، مما ساهم في إعمار بلادهم وكثرة أموالهم (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 372)، ويقول البكري: "**فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي**

اليوم مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة" (البكري، 1992، ص 710).

وعلى عكس فترة حكم القائد التي دامت سبعًا وعشرين سنة، فإن خليفته محسن (446-447هـ/1054-1055م) لم يدم حكمه إلا ثمانية أو تسعة أشهر، فقد لقي حتفه بسبب عصيانه لأوامر والده القائد الذي كان قد أوصاه بأن يحسن لأعمامه، وأن لا يغادر القلعة إلا بعد تمام ثلاث سنوات من حكمه (ابن خلدون، 2000، ص 229) (ابن الخطيب، 2003، ص 329)، لكنه خالف ما أمره به والده وعزم على عزل أعمامه من أعمالهم، وقتل أربعة منهم، وعندما ثار عليه عمه يوسف بن حماد بسبب ذلك، خرج محسن من القلعة لمحاربته، وأرسل في طلب بلكين ابن عمه محمد بن حماد، ويفيدنا ابن خلدون برواية عن تحالف بين الأمير محسن وقبائل بني هلال، حيث أرسل رجلين من عرب بني هلال هما خليفة بن بكير وعطية الشريف، وأمرهما بقتل بلكين في طريقهما، لكن الرجلين أخبرا بلكين بالمؤامرة وتحالفا معه وتعاهدوا جميعا على قتل محسن، ولما اكتشف هذا الأخير أمرهم فرّ إلى القلعة، إلا أنّ بلكين أدركه قبل أن يدخلها فقضى عليه واستولى على القلعة (ابن خلدون، 2000، ص 229)، وبذلك يكون بلكين قد وصل إلى الحكم بمساعدة الهلاليين.

ويظهر أنّ بني حماد ساروا على نفس السياسة التي انتهجها أبناء عمومتهم في القيروان من قبل، فعملوا على إدخال الهلالية في خدمتهم، وهكذا نرى بلكين بن محمد يخرج سنة 450هـ/1058م، ومعه جماعات من الأثبج وعدي لحرب زناتة، وبفضلهم تمكن من كسر زناتة وقَتْلِ أعدادٍ كثيرة منهم (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 297). ورَدًا على التوغّل المتكرر للمرابطين في الجزء الغربي لحدود الدولة الحمادية، جهّز بلكين بن محمد في سنة 454هـ/1062م، جيشا لوضع حد لهذه الأطماع، وعندما سمع يوسف بن تاشفين بخروجه، اضطر للانسحاب إلى الصحراء، في حين دخل هو مدينة فاس التي تَعَهّد له أشرافها على الالتزام بالولاء، وتقديم فروض الطاعة، وفي طريق عودته من هذه الحملة فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس وقتله انتقاما لأخته التي قتلها بلكين، واستولى على الحكم. (الشنتريني، 1979، ص 190).

وأول عمل قام به الناصر (454-481هـ/1062-1088م) بعد استيلائه على الحكم هو توزيع الأموال على الهلاليين والزناتيين الذين كانوا موالين لبلكين، وبذلك أمن غدرهم وكسبهم إلى صفّه : "**وأمر لحينه بخزائن بُلُقين فأنهبها ذُؤبانَ العربِ وصُقُورةَ زناتة، فاستخلص بذلك غُيوبهم، وأَمالَ إليه قلوبَهم**"، ولتأمين دولته عهد بالقسم الغربي من مملكته إلى أخيه كبّاب وكانت إقامته في مليانة، وعيّن أخاه رومان على ولاية حمزة، وأسند ولاية نقاوس إلى أخيه خزر، وولاية قسنطينة إلى أخيه بلبار، وعلى الجزائر ومرسى الدجاج لابنه عبد الله، وعلى أشير لابنه يوسف. وعلى إثر انتهائه من الإصلاحات الداخلية لدولته، وجّه الناصر حملة عسكرية إلى بسكرة قادها وزيره خلف بن أبي حيدرة ، وكان يحكمها بنو جعفر، وعندما أقدم بلكين على قتل مقدّمها جعفر بن أبي رُمّان، قاموا بخلع طاعة بني حماد، فتمكن خلف من إخضاعها، وقام بترحيل بني جعفر وعددا من أعيان المدينة إلى القلعة، فقتلهم الناصر وصلبهم، وبوشاية من قادة صنهاجة قام الناصر بقتل وزيره

خلف بن أبي حيدرة، وولّى مكانه أبا بكر بن أبي الفتوح المعروف باسم أحمد بن جعفر بن أفلح، وأثناء قيامه بحملة تفقدية بالمغرب، استولى علي بن ركان بمعونة إخوانه من عجيسة على تاقربوست، فرجع الناصر من المسيلة، ونازلهم واسترد منهم تاقربوست، وذبح علي بن ركان بيده. وعلى صعيد العلاقات الزيرية الحمادية في عهد الأميرين الجديدين تميم والناصر، اللذين ارتقيا إلى سدّة الحكم في عام واحد وهو سنة 454هـ/1062م، فكانت العلاقة بينهما سيئة للغاية بسبب تدخل الناصر في شؤون إفريقية عن طريق المتمردين على السلطة الزيرية، حيث كتب إليه حمو بن مليل البرغواطي صاحب صفاقس، بالطاعة والولاء، وبعث له هدية، كما وفد إليه أهل قسنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس لتقديم شواهد الإخلاص، أما تونس فلم تكتف بالدخول في طاعة الحماديين، بل وفد شيوخها على الناصر طالبين منه تعيين وال عليها، فولّى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان (ابن خلدون، 2000، ص 217، 230)، وبالتالي لم يكن مستبعدا أن تنشب حربًا بين الطرفين في أي لحظة.

3. معركة سبيبة وإقرار الهلاليين على مجالات بني حماد

لم تسعفنا المصادر المغربية بمعلومات وافية حول أول احتكاك بين تميم والناصر، ومن حالفهما، اللهم إلا ما ذكره ابن عذارى بقوله: "**وفي سنة 457هـ/1065م، كُسِر عسكر الناصر بن حماد، وكان قد خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج، فلقيتهم رياح وزُغبة وسُليم، فانهزم الناصر، وقُتل من أصحابه خلقٌ كثير**" (ابن عذارى، 1983، ص 299)، أما ابن خلدون فيرى أنّ هذه الحرب كانت نتيجة للفتن والحروب التي وقعت بين قبيلة رياح من جهة والأثبج من الجهة المقابلة، فوفد على الناصر رجال من الأثبج يطلبون منه الدعم ضد رياح حلفاء تميم "**فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة**" (ابن خلدون، 2000، ص 230).

أما المصادر المشرقية فقد أعطتنا معلومات دقيقة حول أسباب المعركة، ومجرياتها، فابن الأثير والنويري يذكران أنّ تميم وصلته أخبار بأنّ: "**الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمّه، وأنه عزم على المسير ليحاصره بالمهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال، ليعينوه على حصار المهدية**". ودائما حسب الرواية المشرقية التي تذكر أنّ تميم عندما تأكد من صحّة المعلومات الواردة إليه، لجأ إلى الحيلة والدهاء، وذلك بإثارة حلفائه وأصهاره الرياحيين ضدّ الناصر بن علناس، فاستدعى أمراء بني رياح، وقال لهم: "**أنتم تعلمون أنّ المهدية حصن منيع أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا، وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم**" (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 372، 373) (النويري، 2004، ص 122)، فانطلت عليهم الحيلة، وطلبوا منه المساعدة، فأمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار، وألف درع، وألف رمح، وألف سيف هندي، ومن جهتهم لجأ قادة بني رياح إلى نفس الأسلوب الذي استعمله معهم تميم، حيث أرسلوا شيخين إلى حلفاء الناصر من العرب الهلالية يلومونهم على مساعدتهم له، ويخوّفونهم منه، ومما قالا لهم: "**كيف وقعتم في هذا الأمر وأردتم تلاف ملككم؟ هذا الناصر قد**

سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضا، وقد اتفق مع زناتة، فإذا وطئ بلدنا بصنهاجة وزناتة قاصدا تميم بن المعز- وتميم في حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه- فعندها يملك بلاد إفريقية ويخرجنا وإياكم عنها"، فاقتنع قادة بني هلال بكلام الشيخين، وقالوا لهما: "**والله لقد صدقتم. فإذا التقينا فقاتلونا فإنا ننهزم ونرجع عليهم. فإذا ملكنا رقابهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان**" (النويري، 2004، ص 123)، ويبدو أنّ تميم قد عقد اتفاقا مماثلا مع المعز بن زيري بن عطية الزناتي، أو أنّ هذا الأخير جمعته المصلحة مع رياح (روجي إدريس، 1992، ص 306)، حيث أرسل إلى من مع الناصر من زناتة فوعدوه بأن ينهزموا (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 373). وبهذا الشكل صارت المعركة محسومة لحلفاء تميم الذين شرعوا في حشد قواتهم انتظارا للموقعة الحاسمة، فاحتوى معسكرهم قبائل رياح وزغبة وسُليم، بينما في الجهة المقابلة احتوى معسكر الناصر إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، وزناتة، قبائل عُدي والأثبج، وكانت المواجهة قرب قرية سبيبة، القريبة من الأربس، في عام 457هـ/1065م (ابن عذارى، 1983، ص 299).

كانت المعركة سريعة وحاسمة، ودارت كما خطط لها تميم، فحسب الخطة المرسومة حمل بنو رياح على الأثبج وعدي، وحملت زناتة، بقيادة المعز بن زيري على أبناء قبيلته المتحالفين مع الناصر، فانهزمت الطائفتان المتحالفتان مع الناصر كما وقع الاتفاق، وتبعتهم في الهزيمة عساكر الناصر، وأسفرت المعركة عن خسائر فادحة في معسكر الحماديين، حيث بلغ عدد القتلى أربعة وعشرون ألفا، ولم ينج الناصر إلا بأعجوبة صحبة عشرة فرسان حسب النويري، ومائتين حسب ابن خلدون (النويري، 2004، ص 123) (ابن خلدون، 2000، ص 230)، بينما قُتِل أخوه القاسم بن علناس الذي ضحّى بنفسه في سبيل مملكة أخيه، وفي ذلك يذكر صاحب الاستبصار أنّ أخاه هذا نهاه عن قتال العرب، وقال له:" **أقم أنت ببلادك وابعث إليهم وصانعهم يأتوك خاضعين وفي جبائك طامعين، فهذا من خُلقِ العرب قديما فلا تلقاهم**"، ويُستشف من هذه الرواية مدى سعي الناصر لاصطناع الهلاليين وإلحاقهم بخدمته كجنود، ويضيف نفس المصدر أنه بعد تأكد القاسم بن علناس من الهزيمة، قال لأخيه الناصر: "**أعطني تاجك والراية أقم على الجيش، وانج بنفسك، فإن كانت السلامة فمن الله، وإلا بقيت أنت للناس، فليس منك الخلف**" (مجهول، 1985، ص 129).

ويصف لنا ابن خلدون ما نتج عن هذه المعركة، بقوله: "**واستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه. وقُتِل أخوه القاسم ونجا إلى قسنطينة ورياح في اتباعه**" (ابن خلدون، 2000، ص 27)، وبعد استيلائهم على جميع ما كان في المعسكر من مال وسلاح ودواب، أرسلوا الألوية والطبول، وخيام الناصر بدوابها إلى ابن عمه تميم، فردّها وقال: "**يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي**"، وهي حركة من تميم تدل على ندمه، وشعوره بتنامي قوة الهلاليين (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 373)، التي أصبحت تهدد كيان البيت الزيري بشقيه، وهو ما يبرر التوجه الدبلوماسي الذي انتهجه الطرفان بديلا عن الصراع والمواجهة. يتبين لنا مما سبق ذكره أنه إذا كانت معركة حيدران سنة 443هـ/1052م، سمحت للهلاليين من التوغل في

أراضي إفريقية، وبعبارة أخرى إقليم بني زيري، فإنّ معركة سبيبة 457هـ/1065م، سمحت لهم بالانتشار في أراضي المغرب الأوسط، وإقرارهم في إقليم الحماديين.

أما عن تقدم الهلاليين نحو بلاد المغرب الأوسط وما انجرّ عنه من نتائج، فيقول ابن خلدون: "**ثم لحق بالقلعة فنازلوها وخرّبوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، ثم طبنة والمسيلة فخرّبوها وأزعجوا ساكنيها**"، ويضيف ابن خلدون: "**وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعًا صفصفًا أقفر من بلاد الجنّ وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد**"، ويقول في موضع آخر: "**ولما دخل الهلاليون إفريقية وغلبوا المعز وقومه عليها واقتسموا سائر أعمالها، ثم تخطوا إلى أعمال بني حمّاد فأحجروهم بالقلعة، وغلبوهم على الضواحي**" (ابن خلدون، 2000، ص 27). إلا أنّ ما ذكره الإدريسي عن مدن وحصون بلاد المغرب الأوسط بعد هجرة الهلاليين، يدل على حسن علاقات أهلها مع العرب، إلى درجة أنهم كانوا يشتركون في الزراعة والتجارة، فيقول عن قسنطينة: "**ومدينة القسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار**"، ويصف حصون المغرب الأوسط بقوله: "**وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة وربما أضرّ بعضهم ببعض غير أنّ أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها وليس عليها دية فيمن تقتل**" (الإدريسي، 2002، ص 263، 265).

وتجسيدا لرغبة الطرفين في الصلح، كلّف الناصر وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح للوساطة بينه وبين تميم، وكان هذا الوزير محبا لدولة تميم، وكان يشير على الناصر بأن لا يحارب ابن عمه، وأن يتفقا على العرب كي يسهل عليهما إخراجهم، ومباشرة بعد تلقيه أوامر الناصر بالسعي لإصلاح ذات البين، أوفد الوزير رسولا إلى المهدية، يعتذر ويعرض الصلح، فوافق تميم وأرسل من جهته رسولا إلى الناصر يدعى محمد بن البعبع (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 373). غير أنّ السفير الزيري، سمح لنفسه بتجاوز مهمته عندما أشار على الأمير الحمادي، ببناء مدينة بجاية، واتخاذها مقرا جديدا للدولة، نظرا لقرب موضعها من إفريقية، وهو ما يُسَهّل رغبة الناصر في الاستيلاء على المهدية، إلا أنّ الأمير تميم اكتشف خيوط هذه المؤامرة، وبمجرد عودة السفير محمد بن البعبع من القلعة، أقدم على قتله (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 374، 375)، وهذه الحادثة كان لها أثر كبير على العلاقات الزيرية الحمادية، التي ظلّت متوترة إلى غاية سنة 470هـ/1078م، وهو تاريخ عقد الصلح بين الدولتين (ابن عذارى، 1983، ص 300).

ونتيجة لضغط الهلالية المستمر على بلاد الناصر بن علناس، بعد أن "**ملكوا عليهم الضواحي، يتحيّفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصاد، ويأخذون لهم الأتاوة على التصرّف في أوطانهم**" (ابن خلدون، 2000، ص 27)، وما نشأ عن ذلك من فوضى، حيث انقطعت الصلة بين المدن بسبب انتشار ظاهرة قطع السبيل، واضطر الفلاحون إلى الفرار من الضواحي، فوقفت التجارة والفلاحة، وانحصرت العمارة والأمن في السواحل (الميلي، 1986، ص 185)، ويقول صاحب الاستبصار: "**فلما نجا المنصور إلى القلعة، نزلت**

عليه جيوش العرب وضيّقوا عليه ببلاده، فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعًا بهم، وكان لا يقدر على التصرّف في بلاده، فطلب موضعا يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب، فدُلّ على موضع بجاية". وفي سنة 460هـ/1068م، افتتح الناصر جبل بجاية، واختط به المدينة، وسمّاها الناصرية باسمه، ولكن غلب على المدينة اسم القبيلة التي كانت تقيم بها وهو بجاية، وبعدما عمّر الناصر عاصمته الجديدة، نقل إليها ذخائره واستقر بها سنة 461هـ/1069م، ونقل إليها الناس وأعفاهم من الخراج، وشهدت المدينة في عهده ازدهارا كبيرا، فقد بنى بها قصر اللؤلؤة، وأنشأ بها دارًا لصناعة المراكب، واستفحل ملك الحماديين، وبلغت دولتهم من القوة ما جعلها تتفوق على دولة بني زيري في المهدية حسبما ذكره ابن خلدون (ابن خلدون، 2000، ص 231، 232) (مجهول، 1985، ص 129، 130).

4. التحالف الحمادي الهلالي

لم تثن هزيمة سبيبة الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م) عن الاستعانة بالهلالية مرة أخرى، لتحقيق أطماعه السياسية في إفريقية، وما كان منه إلا إتباع أسلوب ابن عمه تميم مع الهلاليين، عن طريق التحالف مع بعضها ضد البعض، ورغم ما فعلته الأثبج في معركة سبيبة، إلا أنّ الناصر عمّق صلته بهذه القبيلة، واختصها دون سائر العرب بالرئاسة والإقطاعات (ابن خلدون، 2000، ص 27) (عويس، 1991، ص 134)، وصار يعتمد عليها في كل حملاته العسكرية، فيذكر ابن عذارى أن الناصر حاصر سنة 460هـ/1068م، الأربس ومعه الأثبج وافتتحها وأمّن أهلها وقتل عاملها ابن مكراز، كما حاصر بهم في السنة نفسها مدينة القيروان ودخلها، وبايعه أهلها إلا أنه لم يمكث بها خوفا من غدر الهلاليين، فعاد إلى قلعته سنة 461هـ/1069م (ابن عذارى، 1983، ص 299) (ابن الخطيب، 2003، ص 333). وفيما كان الصراع محتدما بين الصنهاجيين، كان العرب الهلالية بدورهم يتصارعون فيما بينهم بهدف الهيمنة على البلاد، ففي سنة 466هـ/1074م، وقيل 467هـ/1075م، نشبت حرب شديدة بين زغبة ورياح، وانتهت بانتصار رياح وطرد زغبة من إفريقية، فقام الرياحيون بمساومة الناصر بن علناس لشراء القيروان التي كانت حينها في حيازة زغبة، وبذلك فرض الحماديون سلطتهم على إفريقية ولو لفترة، ويصف ابن خلدون الموقف في إفريقية في تلك الآونة بقوله: "**وصارت صاغية أهل إفريقية إلى بني حماد ملوك القلعة وملكوا القيروان**" (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 408) (ابن عذارى، 1983، ص 300).

وأما عن صراع الحماديين مع زناتة في عهد الناصر، فقد غلب الطابع العدائي بين الطرفين، ولم يأل الناصر جهدا في مقاومة زناتة، فقد قام بعدّة حملات عسكرية على المغرب الأوسط (روجي إدريس، 1992، ص 323)، وذكر ابن خلدون أنّ المنتصر بن خزرون الزناتي وجد بني عدي في طرابلس عندما أخرجتهم الأثبج وزغبة من إفريقية، فقام بتجنيدهم ليتجهوا معه إلى غزو المغرب، وسار بهم حتى استقر بالمسيلة، ودخلت جحافلهم إلى أشير، ويبدو أن المنتصر لم يقو على المواجهة، فحينما خرج إليه الناصر، لاذ بالفرار إلى الصحراء، لكن بمجرد عودة الناصر إلى القلعة، استأنف المنتصر وحلفاؤه الهلاليين أعمال السلب والنهب،

وأمام صعوبة إخضاعه اضطرّ الناصر إلى استعمال الحيلة والدهاء، حيث عرض على المنتصر الصلح مقابل إقطاعه ضواحي الزاب وريغة، وفي نفس الوقت أوعز إلى عامل الحماديين على بسكرة عروس بن سندي، أن يستدرج المنتصر ويقوم بقتله، وفي سنة 460هـ/1068م، وصل المنتصر إلى بسكرة فخرج إليه عروس وأشار إلى حشمه بقتل المنتصر عند انكبابه وذويه على الطعام ففعلوا، ثم أُرسلت رأسه إلى الناصر فنصبه ببجاية (ابن خلدون، 2000، ص231) (روجي إدريس، 1992، ص323). وبعث أهل الزاب إلى الناصر؛ أنّ الزناتيين وبني غمرت ومغراوة، تحالفوا مع الأثبج ونهبوا بلادهم، فأرسل ابنه المنصور على رأس الجيش فخرّب وُرغلان بلد المنتصر بن خزرون الواقعة جنوب بسكرة، ثم وجّه جنوده إلى ورقلة وعيّن على رأسها عاملا، وقفل راجعا مُحمّلا بالغنائم والسبي، وبلغه أنّ بني توجين الزناتيين، قد ظاهروا بني عدي الهلاليين على الفساد وقطع السبيل، فبعث إليهم ابنه المنصور فقبض على أميرهم مناد بن عبد الله، وأخيه زيري وعمّيهما الأغلب وحمامة، وأحضرهم إلى الناصر فوبّخهم ثم قتلهم (ابن خلدون، 2000، ص231) (روجي إدريس، 1992، ص324). ولم تنحصر العلاقات الحمادية الزناتية، في الخلاف والعداء، وإنما تخللت ذلك فترات عرفت نوعا من التصالح بينهما، حيث يذكر ابن خلدون أنّ بني ومانو الذين كانت لهم الرئاسة على زناتة، تزوج الناصر إحدى بناتهم وكانت أخرى عند ابنه المنصور. هذه الأحداث تعطينا صورة واضحة عن الفوضى التي شهدها المغرب الأوسط في تلك الفترة، ويعود السبب على وجه الخصوص إلى تلك التحالفات التي أبرمتــها بطون من قبيلة زناتة مع الهلالية، اقتداء بأعدائهم الصنهاجيين (ابن خلدون، 2000، ص 233).

ولما توفي الناصر سنة 481هـ/1089م، قام بالأمر من بعده ابنه المنصور فسار وفق سياسة أبيه (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 455)، فقد استطاع استغلال القبائل الهلالية أحسن استغلال، حيث صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد من تمرها وبرّها وغير ذلك، فبقي اتفاق الصلح ساريا بين الطرفين ففي فترة حكمه، وفترة حكم يحيى بن العزيز بن المنصور (المراكشي، 1963، ص 294)، وهذا لم يمنع قبائل بني هلال من الانخراط في التمرد الذي قام به بلبار في قسنطينة على ابن أخيه المنصور، إلا أن قائد الجيش الحمادي أبو يكني بن محسن بن القائد بن حماد تمكن من إنهاء التمرد والقبض على بلبار وإرساله إلى القلعة، وأقام أبو يكني واليًا على قسنطينة بإذن من المنصور، وعهد بولاية بونة إلى أخيه ويغلان، إلا أنه في سنة 487هـ/1094م، تعرّض البيت الحمادي لمحاولة انقلابية كبيرة قادها أبو يكني، حيث كلّف أخاه ويغلان بالذهاب إلى تميم في المهدية عارضا عليه تسليم بونة، فقبل تميم ذلك العرض، وأوفد مع ويغلان ابنه أبو الفتوح كي يستلم المدينة، ومن جهة أخرى تمكن أبو يكني وأخاه ويغلان من توظيف عدد كبير من الهلالية في صفوفهم، وتبادلوا الرسائل مع المرابطين في المغرب الأقصى، ولم يتأخر الرد الحمادي على هذه التطورات، فقد سرّح المنصور عساكره إلى بونة لاسترجاعها، وبعد سبعة أشهر من الحصار، تمكن الجيش من اقتحامها، وقبضوا على أبي الفتوح بن تميم ووجّهوه إلى القلعة حيث أمر المنصور بسجنه، ثم حاصر جيشه قسنطينة، فاضطر أبو يكني للخروج والتحصّن بقلعة في جبل أوراس، فتوجهت إليه العساكر واقتحموا عليه

قلعته وقتلوه، أما قسنطينة فقد استولى عليها أحد رجالات قبيلة الأثبج يُدعى صُليصِل بن الأحمر، فساومه المنصور كي يتنازل له على المدينة مقابل المال، فعادت قسنطينة إلى ممتلكات المنصور من جديد (ابن خلدون، 2000، ص 232، 233) (روجي إدريس، 1992، ص 326).

أما على صعيد الصراع مع زناتة، فقد ساءت العلاقة بين المنصور وبين أصهاره من بني ومانو، بسبب تحالفهم مع المرابطين، فعندما غزا قائد الجيش المرابطي مزدلي بن تبلكان، تلمسان سنة 472هـ/1080م، تمكن من الاستيلاء عليها، لتتخذ منذ سنة 474هـ/1082م، قاعدة لجند المرابطين وعتادهم بالمنطقة (ابن أبي زرع، 1972، ص 143) (ابن خلدون، 2000، ص 233)، ونصّب يوسف بن تاشفين على المدينة عاملا له يدعى محمد بن يغمر المسوفي، فأخذ هذا الأخير في الإغارة على ممتلكات الحماديين، حيث استولى على وهران، وجبال الونشريس، وشلف وتنس، إلى أن نازل الجزائر سنة 475هـ/1083م (ابن أبي زرع، 1972، ص 143)، ويبدو أن هذا الغزو كان بمساعدة قبيلة بني ومانو، الأمر الذي أغضب المنصور فسيّر جيشا إلى بني ومانو وخرّب حصون ماخوخ، وضيّق على ابن يغمر المسوفي، فاضطرّ يوسف بن تاشفين إلى التصالح معه ووضع حدّ للغارات المرابطية على الممتلكات الحمادية، إلا أن المرابطين لم يلتزموا بهذا الصلح، فسرعان ما عادوا إلى الإغارة على بلاد المنصور، فبعث إليهم ابنه الأمير عبد الله، ولما سمع به المرابطون رجعوا إلى مراكش، في حين شنّ عبد الله غارة على قبيلة بني ومانو المتمردة، وتمكن من فرض سيطرته على المغرب الأوسط، وعاد إلى بجاية (ابن خلدون، 2000، ص 233) (روجي إدريس، 1992، ص 327)، وبعد وفاة ابن يغمر المسوفي خلفه على تلمسان أخوه تاشفين، فغزا أشير وافتتحها وخرّبها، وكان لقبيلة بني ومانو بقيادة ماخوخ دور في ممالأته وإمداده، فحقد عليهم المنصور وخرج لغزوهم، لكنه هُزِم أمامهم، فولّى راجعا إلى بجاية وأول ما دخل قصره قام بقتل زوجته أخت ماخوخ، انتقاما من أخيها، وكان لا بد من مواجهة عسكرية بين الحماديين والمرابطين، نتيجة للتوتر المستمر للعلاقة بين الجانبين، بداية بالتواجد المرابطي المستمر على جزء معتبر من القسم الغربي للدولة الحمادية منذ سنة 472هـ/1080م (ابن خلدون، 2000، ص 75)، ثم توترت العلاقات أكثر حين لجأ أمراء الطوائف المخلوعين إلى المغرب الأوسط، حيث قبل المنصور استضافة ولي عهد ألمرية معز الدولة بن صمادح، وأهله وبعض رعيته، الذي لجأ إليه فرارا من قوات المرابطين التي استولت على ملكه في الأندلس، فأقطعه المنصور منطقة تدلس التي أقام بها حتى آخر حياته (ابن أبي زرع، 1972، ص 155) (بوتشيش، 1994، ص 83).

وفي سنة 496هـ/1103م، حشد المنصور قواته لغزو تلمسان، وقد اشتملت جيوشه بالإضافة إلى الصنهاجيين والزناتيين، تحالف كبير من القبائل الهلالية متمثلة في الأثبج ورياح وزغبة وربيعة والمعقل، وزحف على تلمسان على رأس عشرين ألف مقاتل، وكي يتحكم في زمام المعركة، اعتمد خطة بمقتضاها جعل جزءا من جيشه يسبقه ليدخل في مناوشات مع جيش المرابطين على مشارف تلمسان، على أن تباغت قواته المتبقية مؤخرة جيش ابن يغمر. ونجحت الخطة؛ حيث غادر تاشفين تلمسان متوجها إلى منطقة تُسَالة المحاذية

لتلمسان، فالتحم مع مقدمة الجيش الحمادي، بينما تمكن القسم الثاني من عساكر المنصور، من ضرب مؤخرة الجيش المرابطي ملحقا به هزيمة نكراء، فأُجبرت قواته على اللجوء إلى جبل الصخرة المحاذي لمدينة تلمسان، وبينما دخلت قوات المنصور إلى تلمسان لنهبها، خرجت إليهم زوجة تاشفين بن يغمر، وتقدمت للمنصور والتمست منه الرحمة، متوسلة له بوشائج صنهاجة بأن يطلق الأسرى، فأكبر قصدها وأكرم موصلها، وأفرج عن كل الأسرى، وأجلى جنوده من تلمسان في صبيحة نفس اليوم وولّى راجعا إلى القلعة (ابن خلدون، 2000، ص 234) (بورويبة، 1977، ص 77).

ويبدو أن القبائل الهلالية كان دورها حاسما في تحديد نتيجة تلك المعركة، ولئن أحجمت المصادر عن ذكر أعدادهم في صفوف الجيش الحمادي، إلا إجمالا ضمن باقي الأصول الأخرى المكونة للجيش، حيث أحصى ابن الخطيب قوات الحماديين باثنتي عشر محلة، أي ما يعادل أربعة وعشرين ألف مقاتل (ابن الخطيب، 2003، ص 333) (هيصام، 2008، ص47). والمؤكد أنّ عدد الهلاليين في صفوف القوات الحمادية كان كبيرا ومؤثرا، وما الرسالة التي بعثها يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر يؤنبه بسبب اعتماده على العناصر الهلالية إلا دليلا لتأكيد ذلك، فردًا على رسالة وردت إليه من المنصور الحمادي لم نقف على نصها، بدأ يوسف بن تاشفين رسالته إلى المنصور بتذكيره بوصول كتابه الذي أرسله إليه، ثم خاطبه بلهجة صريحة وقاسية، متهما إياه بالتجني، ومعاتبا إياه بسبب تحالفه مع الهلاليين: "**إلى صاحب قلعة حماد وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى صادرا عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك وأجحفت بطارفك وتلادك...وجدناك تتجنّى وتُثَرّبْ على من لم يستوجب التثريب... تستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا، وتمنح أهل العشرات مئين وأهل المئين آلافًا، كلّ ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصبهم لك وتألّبهم، وتعتقد أنهم جُنّتك من المحاذير، وحماك دون المقادير...**" (ابن خاقان، 1989، ص 310، 311).

وهناك تساؤل أثاره الدارسون حول عدم مواصلة المرابطين زحفهم نحو الشرق، وتفضيلهم الشمال، خصوصا وأنّ إمارة بني حماد تراجعت قوتها، وصارت في متناول المرابطين، فهناك من يفسر ذلك بتمكن الحماديين من ردع جيوش المرابطين التي اضطرت للتراجع، (بوتشيش، 1994، ص 84) (عويس، 1991، ص 142) بينما عزا البعض ذلك إلى إبقاء المرابطين على صلات القربى بينهم وبين بني حماد، (أحمد محمود، دت، ص 206) في حين رد طرف ثالث ذلك إلى استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطين، (العروي، 2000، ص 118) وفي تقديرنا فإنّ هزيمة تلمسان، وما رآه قادة الجيش المرابطي من شراسة المقاتل الهلالي، وخشية من اجتياحهم للمغرب الأقصى، هذه الأسباب مجتمعة هي التي فرضت على المرابطين توقيف مشروعهم التوسعي في المغرب الأوسط.

وبعد وفاة المنصور سنة 498هـ/1105م، خلفه ابنه باديس على العرش الحمادي، وكان كما وصفته المصادر شديد البأس، عظيم السطوة، سريع البطش، ولم يُعمّر في الحكم طويلا، فقد دامت عهدته ثمانية

أشهر فقط، بدأها بالتنكيل برجال حكمه، حيث أقدم على قتل عبد الكريم بن سلمان وزير أبيه المنصور، ولما غادر القلعة للاستقرار في بجاية، قتل عاملها، ثم امتدّت إساءته إلى أخيه العزيز حيث نفاه إلى جيجل بعدما عزله عن الجزائر التي كان واليا عليها في عهد والدهما المنصور، ولقي باديس حتفه قبل أن يستكمل سنة من حكمه، ويقال أنّ أمه هي التي سمّته لأنه كان يهددها ويتوعدها. وبعد وفاة باديس ولي بعده الحكم أخوه العزيز(498-515هـ/1105-1121م)، وقد استدعاه من جيجل قائد الأسطول الحمادي علي بن حمدون فتمت مبايعته، وكانت سياسته شبيهة بسياسة والده وجدّه الناصر، حيث عمل على التقرب من جميع جيران مملكته، فقد صالح زناتة وتزوج ابنة الزعيم الزناتي ماخوخ اقتداء بوالده وجده، (ابن خلدون، 2000، ص 234) (ابن الخطيب، 2003، ص 334) وتقرّب من أبناء عمومته الزيريين، وتمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين الطرفين، تزوج الأمير الحمادي العزيز ببدر الدجى ابنة الأمير يحيى بن تميم ودخل بها سنة 509هـ/1116م، إلا أنّ هذا الصلح لم يمنع العزيز من تجهيز أسطول إلى جربة، فتمكن من إخضاعها وإدخالها في طاعته، كما نازل تونس فاضطر صاحبها أحمد الخراساني إلى الدخول في طاعته (ابن عذارى، 1983، ص 306) (عويس، 1991، ص 150).

وأما على صعيد العلاقات مع المرابطين، فوفاة يوسف بن تاشفين سنة 500هـ/1107م، تسببت في اختلال أحوال الدولة المرابطية، وواجه خليفته علي بن تاشفين مشاكل كثيرة يلخصها المراكشي بقوله: "**فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كلٌّ منهم يُصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه، واستولى النساء على الأحوال وأُسندت إليهن الأمور**"، (المراكشي، 1963، ص 241) (عويس، 1991، ص 149). ونتيجة لهذه الظروف لم يعد حكام المرابطين يتطلعون إلى التوسع على حساب جيرانهم الحماديين. أما الهلاليين فإنهم بسبب غياب الأمير الحمادي عن القلعة وإقامته الدائمة في بجاية منذ تربعه على العرش، قاموا بالإغارة على القلعة "**فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها، وعظم عيثهم**"، (ابن خلدون، 2000، ص 235) ولم تنجح الحامية التي تركها الحماديون في القلعة من صد عدوانهم، وعندما بلغ الخبر إلى العزيز (498-515هـ/1105-1121م)، جهّز جيشا بإمارة ابنه يحيى (515-547هـ/1121-1152م) وقائده علي بن حمدون، وعند وصولهم إلى القلعة أمّنوا الهلاليين، وعاتبوهم على فعلهم وولّوا عائدين إلى بجاية، وفي سنة 515هـ/1122م، توفي العزيز فخلفه ابنه يحيى، وتصفه المصادر بأنه كان مستضعفا مغلبا للنساء مولعًا بالصيد واللهو، لا ينظر في شيء من أمور مملكته، وترك أمور الدولة بيد عائلة بني حمدون (ابن خلدون، 2000، ص 235) (ابن الخطيب، 2003، ص 334)، وهو أول من ضرب السكة من الأمراء الحماديين، وكتب على أحد وجهيها: "**واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**"، وعلى الوجه الآخر: "**بسم الله الرحمن الرحيم ضُرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة**". ويبدو أنّ علاقته مع أبناء عمومته في المهدية لم تكن على ما يرام، فقد كان يحيى يتطلع للتوسع على حساب

المدن الواقعة تحت سيطرتهم أو التي يسيطر عليها العرب، فعندما شقّ عليه ابن مروان عصا الطاعة في توزر، وجّه يحيى قائده مطرف بن علي بن حمدون على رأس جيش لتأديبه، فاستولى مطرف على المدينة، وقبض على ابن مروان وأرسله إلى يحيى فسجنه في الجزائر إلى أن هلك في معتقله، وبعث مطرف ابنه إلى تونس فافتتحها ونازل المهدية فامتنعت عليه (ابن خلدون، 2000، ص 235) (عويس، 1991، ص 156).

وتذكر المصادر أنّ وفدا من عرب بني هلال وفد على يحيى بن العزيز طالبين منه مساعدة عسكرية لامتلاك المهدية، تاركين أولادهم عنده كرهائن، وحسب ابن الأثير فإن سبب ذلك هو النفوذ المتزايد لأحد الأمراء العرب لدى الأمير الزيري الحسن بن علي، فحسده غيره من العرب (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 285)، بينما يذكر التجاني أنّ السبب يعود لخلاف بين الحسن وبين ابن عمه يحيى بن العزيز، (التجاني، 1981، ص 339، 340) في حين يُرْجِع ابن أبي دينار السبب إلى الصلح الذي أبرمه الأمير الزيري الحسن بن علي مع صاحب صقلية رجار مخافة من شره، ولشعوره بالعجز عن مواجهته عسكريا، فلم يُرضِ هذا الصلح المهين أهل المهدية، وقاموا بمكاتبة الأمير الحمادي يحيى بن العزيز وأطمعوه بتسليم المهدية. (ابن أبي دينار، 1869، ص 90) (ممدوح حسين، 1998، ص 206) فأرسل يحيى سنة 529هـ/1135م، أسطولا في البحر وجيشا في البر قائده الفقيه مطرف بن حمدون وانضم إليه جمع كثير من عرب بني هلال، حتى نزلوا على المهدية وحاصروها برا وبحرا، وأظهر مطرف أنه يريد استلام المدينة دون قتال، وبعد حصار دام سبعين يوما نشب القتال بين الطرفين إلا أنّ مطرف فشل في اقتحام المهدية لحصانتها، وفي تلك الأثناء وصلت نجدة بحرية من رجار صاحب صقلية، وأمام هذه التطورات اضطر الجيش الحمادي للانسحاب. وكانت نتائج هذه الحملة وخيمة على الجانب الحمادي، فمن جهة ساهمت في تعميق حدّة الخلاف بين الحماديين والزيريين، كما أنها فتحت على الحماديين باب الصراع مع النورمان، ففي سنة 537هـ/1143م، بعث رجار حملة عسكرية إلى جيجل وكانت تابعة للحماديين، فأخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها (التجاني، 1981، ص 340) (ابن خلدون، 2000، ص 215)، واستولى سنة 539هـ/1145م، على مدينة برشك الساحلية وقتل أهلها وسبى حريمها وباعهم بصقلية (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1987، ص 334).

وفي سنة 546هـ/1152م، عزم الخليفة الموحدي عبد المؤمن على فتح بجاية، وكان لما أراد السير إليها، اتجه من مراكش إلى سبتة فظن الناس أنه يريد العبور إلى الأندلس، وأوقف حركة القوافل إلى شرق المغرب، وهي خطة أراد من خلالها عبد المؤمن مباغتة الحماديين، وسار من سبتة سنة 547هـ/1153م، فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها (البيذق، 1971، ص 73). وكانت القبائل العربية أكثر القبائل دفاعا عن الدولة الحمادية، وظلوا يقاومون حتى بعد أن استسلم بنو حمّاد، حين خانهم وزيرهم أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون، الذي فرّ إلى بني سُليم، فكتب إليه عبد المؤمن بالأمان، فترك العرب وبني حمّاد والتحق بعبد المؤمن، وفتح له باب بجاية عاصمة بني حمّاد (ابن أبي زرع، 1972، ص 193) (عبد الرحمن، 2011،

ص 77)، أما يحيى فقد فرّ إلى قسنطينة وكان بها أخوه الحسن بن العزيز، فأقام بها أياما إلى أن دخل في طاعة الموحدين، ووصل إلى الخليفة عبد المؤمن فأكرمه، ورحل معه إلى مراكش، ثم أسكنه بمدينة سلا إلى أن توفي ودُفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر، وبذلك انقرضت دولة بني حماد. (التجاني، 1981، ص 334).

خاتمة

خلاصة القول أن الحماديين نجحوا في استمالة القبائل الهلالية اقتداء ببني عمومتهم الزيريين في وقت مبكر، واستطاعوا توظيفهم في مشاريعهم التوسعية على حساب الزيريين وفي حروبهم مع عدوهم التقليدي زناتة، ثم مع دولة المرابطين، كما استعانوا بهم للوصول إلى سُدّة الحكم، وعانى حكام بني حماد من المزاج المتقلب للهلاليين، وخصوصا قدرتهم على التكيف والتحالف مع أي جهة تدفع لهم أكثر، إلا أنّ ما يحسب للهلاليين، هو أنهم كانوا أكثر القبائل دفاعا عن الدولة الحمادية أمام الموحدين، وظلوا يقاومون حتى بعد أن استسلم بنو حمّاد.

قائمة المصادر والمراجع

- **المصادر:**

1- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني. (1987). **الكامل في التاريخ**، (المجلد 8). (أبو الفدا عبد الله القاضي، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

2- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني. (1987). **الكامل في التاريخ**، (المجلد 9). (عبد الله القاضي أبو الفدا، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

3- الإدريسي، أبو عبد الله الشريف. (2002). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

4- البكري، أبو عبيد الله. (1992). **المسالك والممالك**. (أدريان فان ليوفن، وأندري فيري، المحررون) تونس: الدار العربية للكتاب.

5- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني. (1979). **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، (المجلد 1). (إحسان عباس، المحرر) بيروت، لبنان: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.

6- البيذق، أبو بكر علي. (1971). **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. الرباط، المملكة المغربية: دار المنصور للطباعة والوراقة.

7- التجاني، عبد الله بن محمد. (1981). **رحلة التجاني**. تونس: الدار العربية للكتاب.

8- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد الإشبيلي. (1989). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**. الأردن: مكتبة المنار.

9- ابن الخطيب، لسان الدين. (2003). **أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، (المجلد 2). (سيد كسروي حسن، المحرر) بيروت، لبنان.

10- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000). **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (المجلد 6). (سهيل زكار، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الفكر.

11- ابن أبي دينار، أبو عبد الله. (1869). **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**. تونس: مطبعة الدولة التونسية.

12- ابن أبي زرع، علي الفاسي. (1972). **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.

13- ابن عذارى، أبو عبد الله المراكشي. (1983). **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، (المجلد 1). (ج.س كولان، وليفي بروفنسال، المحررون) بيروت، لبنان: دار الثقافة.

14- القلقشندي، أحمد أبو العباس. (1980). **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**. (إبراهيم الأبياري، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

15- مجهول (كان حيًا سنة587هـ/1191م). (1985). **الاستبصار في عجائب الأمصار**. (سعد زغلول عبد الحميد، المحرر) الدار البيضاء، المغرب: دار النشر المغربية.

16- المراكشي، عبد الواحد. (1963). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. (محمد سعيد العريان، المحرر) القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

17- المستنصر بالله، الفاطمي. (1954). **السجلات المستنصرية**. (عبد المنعم ماجد، المحرر) القاهرة: دار الفكر العربي.

18- النويري، شهاب الدين. (2004). **نهاية الأرب في فنون الأدب**، (المجلد 24). (عبد المجيد ترحيني، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

- **المراجع:**

1- أحمد محمود، حسن. (دت). **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**. القاهرة: دار الفكر العربي.

2- بوتشيش، القادري. (1994). **تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة**. بيروت، لبنان: دار الطليعة.

3- بورويبة، رشيد. (1977). **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. الجزائر**: ديوان المطبوعات الجامعية.

4- حسن علي، حسن. (1980). **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**. القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.

5- حسين، ممدوح. (1998). **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري**. الأردن: دار عمار.

6- الخضري بك، محمد. (2003). **الدولة العباسية**. القاهرة: مؤسسة المختار.

7- روجي إدريس، الهادي. (1992). **الدولة الصنهاجية**، (المجلد 2). (حمادي الساحلي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

8- العروي، عبد الله. (2000). **مجمل تاريخ المغرب**، (المجلد 2). الدار البيضاء، المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.

9- عويس، عبد الحليم. (1991). **دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر**. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع.

10- مارسيه، جورج. (دت). **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**. (محمود عبد الصمد هيكل، المترجمون) الإسكندرية: منشأة المعارف.

11- الميلي، مبارك. (1986). **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، (المجلد 2). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

12- هيصام، موسى. (2008). **الجيش الجزائري في العهد الحمادي**. المدية، الجزائر: منشورات مديرية الثقافة.

13- يونس، عبد الحميد. (د.ت). **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**. كتب عربية.

- **المقالات:**

1- بشير، عبد الرحمن. (2011). **العرب في عصر الموحدين بين الخضوع والتمرد**. مجلة كلية الآداب.

2- أبو عزة، عبد الله. (1986). **القرامطة وقبائل الأعراب البادية**. مجلة المؤرخ العربي.